أساليب اللغة في الرواية العربية
زقاق المدق إنموذجاً

المدرس المساعد : حنان عبد الهادي أمين
hananabd@uomustansiriyah.edu.iq

المقدمة :

تهدف هذه الوريقات البحثية بالتعرف على اللغة وأسلوبية كل كاتب في السرد العربي ؛ لأن لكل فن لغة خاصة ؛ وهي الأداة التي يمتلكها الفنان للتفاعل مع الآخرين .

* فكرة المحاضرة : تتبع تطور دلالة اللغة وأساليبها في الرواية العربية ؛ بالاعتماد على نظريات السرد عند كل من " لوكاتش ، وميخائيل باختين ، و والاس مارتن" ووجدت إن كل ناقد روائي منهم قد اهتم بدراسة اللغة من زاوية معينة ؛ بحيث إن :

- لوكاتش عالج اللغة السردية من خلال ربطها بالواقع الواقع وقد اخذ على الواقعية (الكتاب الواقعيون) اهمالها الجانب الشكلي لصياغة الأعمال الفنية للكاتب اي انه لا يعطى عناية كافية للشكل في الأعمال الفنية .
- على حين باختين عالج قضية اللغة السردية عبر مفهوم التعددية اللغوية كقوام حوارية اللغة استجابة معارضة لما طرحه الشكلانيون الروس والأسلوبيون المتأثرون بألسنية دوسوسير الذين حددوا اللغة كبناء مستقل له انساقه ودلالاته وقوانينه وضوابطه المكتفية بنفسها والتي يمكن أن تدرس دراسة علمية دقيقة فطرحوا تمظهرات شعرية النص وإن عالم اللغة في الرواية عالم حواري تترابط فيه البنى والعناصر والأجزاء الداخلية والخارجية للرواية، مشكلة علاقات حوارية تختلف باختلاف الفكرة واختلاف الأسلوب، " فالنزعة الحوارية ليست تلك الحوارات الخارجية المعبر عنها من خلال التكوين والتي تجريها الشخصيات بل إن الرواية المتعددة الأصوات ذات طابع حواري على نطاق واسع وبين جميع عناصر البنية الروائية توجد دائما علاقات حوارية .
- وأما والاس مارتن يرى عبر معالجته للغة السردية أن الذي يُخصِّص جنس الرواية، ويخلق أصالته الأسلوبية هو الإنسان الذي يتكلم وكلامه؛ المتكلم في الرواية هو فرد اجتماعي ملموس ومحدد تاريخيًا، وخطابه لغة اجتماعية وليس لهجة فردية.

وهذه الاتجاهات الثلاثة قد أثرت في أساليب الكتاب العرب وطرق تناولهم لقواميس اللغة ؛ فكل كاتب وظف النظرية بما يناسب مرتكزاته وافكاره . علماً (ان العرب قد كتبوا بطريقتين عامي وفصحى) وهذا أيضاً أسلوب من أساليب الكتابة السردية العربية.

العرض :

نحن نعلم إن لكل فن لغة ، وهذه اللغة تكون شفرة ووسيلة ما بين المنتج والمتلقي ؛ لهذا نقول لكل فن لغته الخاصة لأنها الأداة التي يمتلكها الفنان الكاتب للتفاعل مع جمهوره ؛ وإن النظم والنثر وسيلتهما (الكتابة) وإن الكلمة في الشعر هي تتواجد من أجل صناعة منظومة تقدم عبر العلاقات المتكونة للفكرة التي يطرحها الشاعر في الصورة الشعرية وهذا الأمر ينطبق على النثر أيضاً ؛ إلا إن الشعر يتحرك وفق كسر القواعد اللغوية المنظومة ويخرج بالكلمة إلى معانٍ حديدة ، وهذا ما أشار إليه رومان ياكبسون بجعل الشعر ((نسق منظم مقترف بحق الكلام العادي ، ويعني به اجتراء على اللغة العادية واخراج الألفاظ من مسارها المعتاد في التعامل اليومي إلى مسار جديد خاص بالشعر وحده فقط))

أما اللغة السردية لها جانبها التعبيري هي الأخرى فهي تنقل لهجة الكاتب وموقفه وتسعى على نحو التأثير وبشكل فاعل في المتلقي وتنحو به إلى التغيير فهي لا تكون قاصرة على البعد الدلالي فقط ؛ بل يكون لها تعبير وإيحاء أيضاً إلا أنها لا تمتلك استقلالية كما في الشعر ؛ الذي يعتمد على التراكيب اللغوية الناشئة من الصور وتقابلها أما في النثر فتوجد داخل متنه لغة الشخصية المتكلمة وأيضاً للوصف وهناك لغة تقريرية في الأدب توجد الشخصيات ثم رسمها عبر اللغة وهذه الشخصيات رسمت عبر كلمات لا وجود لها خارج النص ؛ فالكاتب يستعمل اللغة التي تسود في مجتمعه لإيصال أفكاره ومشاعره إلى الآخرين بمعنى إن أسلوبية اللغة تعتمد على لغة العصر .

لهذا تعد اللغة أهم مكونات العمل السردي إلى جانب البنية الزمنية والمكانية والوصف والاحداث والشخصيات ؛ فهي التي تميز الرواية عن الاجناس الأخرى عبر توظيفها في الأشكال النثرية من " وصف، مشهد ، وقفة، استرجاع ، حدث استباقي" أي عبر تقنيات السرد ، وتكون اللغة شفرة ما بين المبدع والمتلقي لما تحمله من رؤى وأفكار وقد يعتمد الكاتب على عدّة أساليب في إيصال أفكاره قد تكون تقريرية أو مجازية أو رمزية ؛ لهذا يتوجب على الكاتب أن يكون لديه قاموسه الخاص ويعمد على توظيفه واستثماره في سياقات تواصلية فنية وتعبيرية تحقق غاية جمالية واجتماعية ؛ لهذا يمكن أن نجزم إن الرواية هي تشخيص اللغة وتصوير الذات والواقع اعتماداً على الأسلوب اللغوي عند كل كاتب .

مثال تطبيقي على أسلوب اللغة في رواية (زقاق المدق) لنجيب محفوظ

يقول الكاتب : ((فاكفهر وجه الشاعر، وذكر محسورا أن قهوة" كرشة" آخر ما تبقى له من القهوات، أو من أسباب الرزق في دنياه، بعد جاه عريض قديم، وبالأمس القريب استغنت عنه كذلك قهوة القلعة. عمر طويل ورزق منقطع، فماذا يفعل بحياته؟وما جدوى تلقين ابنه البائس هذا الفن وقد بار وكسد؟...ومادا يخبئ له المستقبل وما يضمر لغلامه؟ اشتد به القنوط، وضاعف قنوطه ما لاح في وجه المعلم من الجزع والإصرار))

نحظ في نص الكاتب وجود ملفوظين إزاء لغتين متداخلتان ومنصهرتان تماماً ؛ حتى لنكاد لا نرى الفروق بينهما يتضح بصورة واضحة إلا بتمعن ونظرة ثاقبة ، وهذه الصعوبة نتيجة انعدام الحدود بينهما فلا توجو أية مسافة بينهما على المستويين: التركيبي والتأليفي، ذلك إن اللغتين معا تندمجان في ملفوظ واحد يعود على من يسرد.

واللغة الأولى هي لغة الشاعر السيئ الحظ الذي تصرم مجده ككل شيء في عالم الزقاق. وحدود هذه اللغة معروفة كأية لغة قديمة ضابطها الأول هو معجمها إضافة إلى المستوى الصرفي المنحرف وفق قوانين اللهجة الشعبية المصرية ودلالاتها الخاصة ؛ فضلاً عن ذلك نجد هناك نظرة الأسى والحزن والإحساس بالخيبة والمرارة الكامنة في كل ما ذكرنا من لغة قديمة، وفي ما يسري في مخيلة الشيخ من تساؤلات عن المستقبل. وهي تساؤلات جاءت ممزوجة بلغة الوعي السالب (المؤسلب بوجه نظر باختين)، الشيء الذي جعلها تتضمن صوتين: صوت المتسائل وصوت المتعجب ولعلها متسائلة بعجب في الآن نفسه كما يدل على ذلك ترادف علامتي الاستفهام والتعجب .

أما اللغة الثانية، فهي لغة الوعي المؤسلب، وهي هنا لغة شارحة ومعقبة على اللغة الأولى، أو كما يبدو من خلال هذا العطف المبدل عما قبله" أو من أسباب الرزق في دنياه". والبعد الانتقادي في هده اللغة، لا يكتفي بإخراج إحساسات الشاعر في تعابير معاصرة وإضاءة جوانبها الغامضة، ولكن يمتد إلى إبراز تساؤلاته في شكل سوداوي ومأساوي يوازي حسرة الشاعر ويساير قنوطه.

أتضح من نص نجيب محفوظ إن أسلوبية اللغة لديه متنوعة ويجمع ما بين اللغة الفصحى واللغة العامية بطريقة توليفية قائمة على الاستعارة والمجاز وتوظيف الجناس والطباق ليخفي على القارئ أسلوبيته التوليفية